٢ ــ ينبغي ألاّ نقف اليوم عند من فهم البلاغة حدوداً وتعريفات، أو منطقاً وفلسفة، ولا عند من انحرف بفهم بعض فنونها كالبديع؛ فرآه زخرفة لفظية هي غاية في نفسها .. وإنما يجب أن نعود إلى الفهم الصحيح لكل ذلك، فهم الإمام الجرجانيّ ونظرائه، ممن لا يرون أيمن طائراً ولا أجلب للاستحسان من أن تترك المعاني تختار ما يروق لها من أثواب اللفظ، وما يليق بها من صور البيان، وأنه لا استحسان للألفاظ والصور إلا إذا كانت المعاني هي التي ساقت نحوها وقادت إليها .

على أن ذلك لا يعني أبداً أن نهمل اللغة أو نقلّل من العناية بأساليبها التعبيرية، لأن اللغة ــ كما قال الآمدي ــ إذا كانت حسنة التأليف، بارعة اللفظ، زادت المعنى المكشوف بهاء وحسناً وزَونقاً حتى كأنها قد أحدثت فيه غرابة لم تكن، وزيادة لم تُعهد . بل إننا نرى أنه لا يجوز أن ننظر إلى اللغة على أنها مجرد خادم للفكر، أو مجرد وسيلة للتعبير، لأنها في الحقيقة ــ وإن كانت تخدم الفكر وتعبّر عنه ــ تتصف بصفات ذاتيّة ترفع قيمتها وتُعلي من شأنها في مجال الفنّ والتذوّق والجمال . إن عنصر التصوير وعنصر الموسيقى مثلاً